الفصل الثالث

المرحلة الثانية من الجهاد بعد نيله شهادة الحقوق

شعوره بواجبه نحو مصر

كان أول شعور للمترجم عقب نجاحه أن اتجه إلى استمرار الجهاد في سبيل الوطن، قال في كتاب له إلى أخيه «علي فهمي كامل» بتاريخ ١٨ نوفمبر سنة (١٨٩٤م):

«واليوم أحمد الله كثيرًا وأشكره شكرًا جزيلًا على فك قيد أسري والمن بإطلاقي في ميدان الحرية، فقد أصبحت حاملًا شهادة الحقوق، وعولت بمشيئة الله على الانتظام في سلك رجال المحاماة، لأدافع عن حقوق الأفراد، ولو أتيح لي الخير وبلغت ما أتمنى لكنت المدافع عن حقوق الأمة بأسرها أمام العالم أجمع؛ لأنَّ مصر وهي جنة الدنيا لا تستحق أن يداس شرفها بالأقدام ونصبح فيها نحن أبناءها الأعزاء ممقوتين غرباء».

لم يفكر الفقيد في مستقبله حين نال إجازة الحقوق؛ بل فكر في واجبه نحو مصر. وهذا يدلك على قوة وطنيته التي ملكت عليه مشاعره، فقد عزم على الانتظام في سلك المحاماة؛ لأنها ميدان الحرية والدفاع عن الحقوق، ولأنها السبيل إلى الدفاع عن حقوق الوطن، ولم يفكر في الانتظام في سلك المناصب لأن لها قيودًا لا يستطيع معها أن يؤدي واجب الجهاد لمصر، ولأن الحكومة في ذلك العصر كانت خاضعة لسيطرة الاحتلال وهو لايقبل هذا الخضوع؛ بل هو ثائر على الاحتلال.

حديثه في جريدة (جازيت دي تولوز) (نوفمبر سنة ١٨٩٤م)

ويبدو لك مبلغ يقينه برسالته وتلهفه على نشرها أنه لم يكد ينال شهادة الحقوق حتى كان له حديث في جريدة (كازيت دي تولوز) التي تصدر في تولوز حيث نال إجازة الحقوق؛ قال فيه:

«أمَّا السبب في تمضيتي سنتين في سنة واحدة فهو أني وعدت شخصًا أحترمه[١] بذلك، ولأن إرادتي رغبت في هذا العمل حتى أخرج من قيد الطلب إلى ميدان العمل والدأب، ومتى عدت إلى مصر أنضم في الحال إلى صفوف المحامين لأني ممن يزدرون الحكومة المصرية الحاضرة، ولا يرون التوظف فيها أو الاستظلال بظلها، وكيف لا يكون الأمر كذلك والموظف منفذ لإرادة من اغتصب أثمن وأقدس شيء لديكم وهو الدستور».

وقد علقت جريدة (جازيت دي تولوز) على هذا الحديث بقولها:

«هذا كلام مصطفى كامل المصري الذي ألقاه بترو وتبصر، ولو أنه تحمس في الجزء الأخير حماسة تدل على قوة الوطنية عند المصريين، وأنهم استفادوا كثيرًا من الدروس التي تلقوها على أساتذة منا».

نشرت جريدة «دي تولوز» حديث الفقيد، وكان وقتئذ قد أتمَّ العشرين من عمره، وظهر من حديثه أنه أعد نفسه للدفاع عن مصر أمام الرأي العام الأوربي، وأنه سيوجه نصيبًا من جهوده للدعاية لمصر في الخارج؛ لأن هذا النوع من الجهاد فضلًا عما له من الأثر البعيد في أوربا وفي مصر، فإنه يرفع من شأن مصر أمام العالم الأوربي، ولا غرو فقد كان الفقيد بوطنيته وكفايته خير من يمثل الأمة المصرية، وترى بداية هذا الأثر فيما نشرته جريدة «دي تولوز» عنه وعن مصر يوم أن نشرت حديثه؛ إذ قالت:

«بين الذين نجحوا في كليتنا الحقوقية شاب مصري هو مصطفى كامل، وهذا الشاب لم يكن من الذين قيدوا في الكلية من مبدأ دراسة الحقوق؛ بل هذه أول مرة له فيها، ومن يعلم أنه أمضى في شهر يولية الماضي امتحان السنة الثانية أمام كلية باريس بنجاح باهر، فإنه يدهش دهشًا كبيرًا لهذا الذكاء النادر، ومع ذلك فلا يعجب

(١) يقصد أخاه حسين واصف باشا.

قراؤنا، فإن تاريخ مصر يحوي الكثير من النظريات العلمية الكبيرة التي تدل على مبلغ تقدم العلوم والمعارف عند المصريين وسمو مداركهم من زمن بعيد، وهؤلاء مواطنونا الفرنسيون الذين عاشوا في مصر واختلطوا بأهلها وأبنائها بصفتهم أساتذة في مدارسها قد صنفوا التآليف الكثيرة في دفائن الذكاء المصري، حتى رفعوه فوق كل ذكاء، والظاهر أن اعتدال الإقليم سبب من الأسباب التي أوجدت في المصريين هذا الذكاء النادر، فأمة كهذه الأمة لها شهرة تاريخية كبيرة، فضلًا عن ميل أبنائها إلى فرنسا ورغبتهم الأكيدة في الحصول على العلوم الحديثة من منابعها الفياضة لا بد أن يسترجع مجدها هؤلاء الأبناء الذين نعجب بهم كثيرًا ونجلهم إجلالًا كبيرًا، وليس في وسعنا بعد الذي شاهدناه من ذكاء «مصطفى كامل» إلا أن نهنئ مصرَ به، ونرجو له النجاح التام في العمل الذي يريد به خدمة بلاده؛ لأن الغيرة التي شاهدناها على محياه، والطلاقة التي تشير إلى مستقبله الباهر، والتي تدل بأوضح بيان على أنه من الذين وهبوا قوة الخطابة، لا بدَّ أن ترفعه إلى مصاف مشاهير الرجال، ثم لا ينسى القارئ أنه يبدو على سيما مصطفى كامل الصفاء التام في القول والفعل، وأن قلبه لا يزال طاهرًا كريمًا، وفوق ذلك فإن آدابه الشرقية الجميلة وتحيات نظراته الساحرة قد هذبت علمه الغربي تهذيبًا لم نره في حياتنا إلا قليلًا، وإن مدينة «تولوز» لتفخر بأن تسجل في عداد الذين تخرجوا من كليتاها شابًّا كهذا الشاب نقي الفؤاد، متصفًا بكل ما يزن المرء من علم وأدب ورأي صائب».

جهاده بعد عودته إلى مصر

عاد الفقيد إلى مصر في ديسمبر سنة (١٨٩٤م) معتزمًا أن يهب حياته كلها للجهاد في سبيل مصر، ولئن قيدت اسمه في جدول المحامين[1] فإنه لم يترافع في

(١) جاء في «المؤيد» عدد ٣١ ديسمبر سنة (١٨٩٤م) ما يأتي: «قررت لجنة انتخاب المحامين قبول حضرة الفاضل الأديب مصطفى أفندي كامل صاحب جريدة (المدرسة) والحائز للشهادة النهائية في الحقوق محاميًا أمام المحاكم الابتدائية، وهو من نخبة الشبان الأذكياء النجباء».

قضية لفرد قط، ولم يحترف المحاماة أمام المحاكم؛ بل شغلته رسالته القومية عنها، إذ انصرفت جهوده للمحاماة عن القضية الوطنية، وقد كانت هذه نيته التي عقد عليها عزمه منذ حصوله على شهادة الحقوق، قال في هذا الصدد من كتاب له إلى «محمود بك أبو النصر» بتاريخ ٤ فبراير سنة (١٨٩٥م)، أي عقب حصوله على شهادة الحقوق ببضعة أشهر: «لعلك تسألني عن أخباري الخصوصية، فأقول: إني تقررت من نحو شهر محاميًا؛ ولكن لم أترافع إلى الآن، ولن أترافع، ولست أدري أيحقق الله لي آمالًا تخالج فؤادي ليلًا ونهارًا، أعتقد أنها إن تحققت أنقذت الوطن من الخطر وأعادته إلى منشأه الأول وأحسن، وسوف تعلمون كنه هذه الآمال».

دراسته المسألة المصرية

حدثنا «علي بك فهمي كامل» شقيق الفقيد في كتابه أنه لما استقبله في الإسكندرية عند رجوعه وجد معه ضمن متاعه صندوقين كبيرين مملوءين بالكتب القديمة والحديثة في تاريخ المسألة المصرية وسياسة الأمم، وفيهما مذكرات بعضها لكبار السياسيين وبعضها من مكتبة باريس، وبعضها من وزارة الخارجية الفرنسية، وبعد أن استقر به المقام في القاهرة وانتقل إلى منزل استأجرته العائلة خلف قسم المنشية (بعمارة خليل أغا) كان لا يفتأ يدرس الكتب والمذكرات التي أحضرها معه.

وقد أكب على هذه الدراسات كأنه لا يزال في دور الدراسة، ولا غرو فإنه قد أعد نفسه ليكون باعث الحركة الوطنية والمحامي عن القضية المصرية، فلا بد أن يدرس كل ما كتب عن هذه القضية، شأن المحامي النزيه الذي يعني بدرس قضيته ليجيد الدفاع عنها، ولم يكن للفقيد سوى قضية واحدة شغلته طول حياته؛ بل قضت على زهرة شبابه، تلك هي قضية مصر الكبرى.

أكب الفقيد على هذه الكتب يدرسها ويستوعب ما بين دفاتها بذكائه النادر وقوة عزيمته، ووضع لنفسه برنامجًا للعمل سار عليه، فكان يعمل يوميًّا ثماني ساعات في مكتبه؛ ذلك أنه يستيقظ في الساعة السادسة صباحًا فيؤدي صلاة الصبح، ثم يتناول

الفطور، ويقصد كوبري قصر النيل للرياضة، ثم يعود في السابعة ويأخذ في المطالعة والعمل، فيستمر بين قراءة وكتابة وتدوين مذكرات إلى الظهر، ثم يتناول الغذاء، وينام إلى الساعة الثالثة، ثم يستأنف المطالعة حتى الساعة الخامسة، وبعدئذ يزور إخوانه وأصدقاءه، ويعود في السابعة مساء ليعاود القراءة مرة أخرى إلى الساعة التاسعة، ثم يتناول مع أفراد الأسرة طعام العشاء، ويقضي السهرة معهم ومع الزائرين حتى منتصف الليل، ثم يأوي إلى فراشه.

وقد نضج فكره من هذه الدراسات العميقة، فكانت عدة له في الكفاح، إلى جانب إخلاصه، وقوة يقينه، ومواهبه الخطابية والصحافية.